وهكذا اشترى الربيع

قصة عراقية

بقلم سميرة خضر السباتي

بدأت تباشير الربيع مشرقة ضاحكة في وجه الطبيعة .. وداخلت النفوس موجة من الفرح والسرور علت وجوهها النيرة .. وعزف الامل لحنه الاول على قيثارة الربيع .. فشدت النفوس بعضها لبعض .. وغنى الطير وهزج العندليب مستبشرا بالربيع حيث أريجه يملأ الفضاء .. وهناك فوق السهول الخضراء تفرقت السعادة ولاح الامل .. وها هم غداة الربيع يروحون ويجيئون ويرقصون للالحان التي تسكبها الافنان .. وها قد لاح الربيع بثوبه الاخضر الموشى بالسندس والياسمين وقد توجه الله بتاج الحكمة والطهر والبراءة .. وتلك السماء الزرقاء التي ما تبسمت الا لهذا الموسم الذي يدر على العالمين السعادة ويبشرهم بالامل والنجاح والتفاؤل وهناك حيث الكل يبيع نفسه لضمير الربيع .. والكل يحب ويشدو بلحن أمل الغد .

وهناك مع رقصة الربيع على عين الغدير . تعيش لقصة الربيع .. وورودة اليانعة المتفتحة عن اكمامها لتزين حديقة قصر الاستاذ (المؤلف الوقور) وهو جالس كعادته ويكتب قصة ليقدمها قريبا لجمهوره المحب لمؤلفاته .

وهاهو الربيع يخفي بين طيات ثوبه مفاجأة لهذه الفتاة التي تمر من امام دار (المؤلف الكبير) .. وكانت كلما تمر تلقى نظرة اعجاب واكبار لفنه القصصي .

كانت الفتاة في ربيع عمرها الحادي والعشرين صامتة بالرغم من وجودها في كلية الحقوق لان المعروف عن طلاب كلية الحقوق لايقف لهم لسان ولايصمت عن الحق حتى ياخذ حقه المظلوم ويأخذ بيده حيث نور الحق والعدالة .. وكانت هي تأخذ الحق بصمتها وكان وحيا يحل مشكلة موكلها عند مجابهة منصة القضاء .. ولكنها كانت عنيدة بل متكبرة عمياء عن الحقائق التي تجابهها وتجهل وجودها .... كانت تثور لاقل سبب تافه وصفاتها هذه نتجت بسبب حادثة حدثت لها في صغرها وقد اثرت عليها ..

كانت وحيدة أبيها بعد وفاة والدتها الحنون .. وكانت الشعلة الوحيدة

التى استقبل بهـا سامى نور الحياة بعد وفاة زوجته الشابة الوفية .

وهنـاك وعنـد بداية الربيع حيث ربيع الحب والسـعادة يضـمك من أعمـاق قلوب البشر .. واما الكـل فيسجد لحكم القدر .

جاء صادق الى ابيها وكان شـابا جميلا . دقيق الحس وكان ابن جارهم القديم الطيب .. كان صادق جامحا عنيفا طموحا . شهما . نبيلا . وكان يعبر عن حيوية الحياة وجمالها بمرحه وابتسامته العذبة . وهمه الوحيد أن يبنى مستقبله وسعادته كالبنيان المرصوص . لاتزعزعه عواصف الايام وعذابات الحياة .. نال صادق شهادة التخرج من كلية العلوم وأخذ يعد نفسه ليقدم على دراسة الادب رغبة فى نفسه أو طموحا بداخله .. وهنا رحب به سامى لجيرته القديمة ولانه ابن الشيخ مصطفى .. وهنا فتح سجل الذكريات ليذكروا صحبة الجيرة وليأنسوا بذكرياتهم بعضا من الساعات .. وأخذ صادق يتردد على دار سامى .

وفى احدى الامسيات زار صادق سامى فرحب به كعادته منذ معرفتهما .. ثم دارت أحاديث شتى بينهم ثم قال صادق .

والله ياعم انك رجل طيب وانى عرفت عن حياتكم كل شىء واتصلت بمعارفكم وأخبرونى بأنكم من عائلة طيبة وشريفة بالرغم مما كان والدى يقص على نبلكم وطيبتكم .

ماذا تقصد ..؟؟

اقصد بأننى أتمنى أن أتقرب لعائلتكم بطلب يد حنان .. ان وافقت ..

مبروك ياصادق فانها منذ اللحظة الاولى لك .. ولى الشرف اذ أنا انتسبت الى عائلة الشيخ والدك .

ثم انتهت الزيارة وصادق لاتسعه الدنيا من الفرح .

وهنا تبدأ قصة هذه الفتاة حيث كان صادق خطيب حنان يتردد على دارهم ويخرج مع حنان باستمرار .. وكان صادق طموحا حتى فى الحب .. وفى أحد الايام .. أشار عقرب الساعة الى العاشرة والنصف ولم تأت حنان فأخذ ابيها يجول ويصول فى الغرفة ذهابا ومجيئا .. وهو صامت وكأنه يحرك كلامة ليوجهه الى حنان على تأخرها هذا وهو يعد الدقائق تلو الدقائق .. وفى تلك اللحظة طرقت الباب ففتح الباب فاذا بحنان .. سلمت عليه ثم قال لها بهدوء .. يكدره غضب صامت ..

ـ حنان بكلمك .. أبوك الشخص الذى يرعاك ويحبك الحب الابوى من بعد حب الله لعباده .. رجائى الاتتأخرى ثانية ولاتكثرى من الخروج مع صادق .. فان كلام الناس واشاعاتهم ياحنان .. أتسمعينها .

ـ ولكن ياأبى مالى .. والناس .. ان اشاعاتهم لاتنتهى وكلامهم كثير وعلينا أن نقضى على هذه الاشاعات .. الا يؤمنون بالواقع .. ارتكب جريمة اذا

خـرجت مع خطيبى ... اليس هـو خطيبى يابى ؟

نعم .. ولكن .

ولكن ماذا ...(اشتد غضبها وكان هذا التعرض يحدث لاول مرة بتصرفاتها من قبل أبيها) .

والآن عرفت لماذا تتعرض بتصرفاتى وتمنعنى .. ومن يروج الاشـــاعات حولى .

اليس هو بعينه يابى ؟

وانتفض فى جلسته ووجهه ترتسم عليه آيات الغضب .. وقال من هو؟؟

ـ انه .. انه فاضل صديقك .

وهنـا اطـرق وجهـه وصدره عن نظراتها .. لانه يعـرف بأن أكثر من هذا الكلام يغمى عليها بسببه ويجعلها تتمرض وتتوسد الفـراش .. ولذلك انسحب جانبـا ليجلس على الكرسى وليهدأ من غضبها . ولكنها قالت :

الم تعرفه ؟ ..اليس هو بعينه الذى خطبنى ورفضته واشـاع عنى باننى سافل ورفض هو الخطبة .. وبعـد كل هذا تسمع حديثه وتصدق كلامه وأخذ الغضب والحنق يثـور فى نفسه ولكن لايستطيع اظهاره .. ثم قال :

ولكن يا حنان انه صـديقى ولا يجوز أن تتكلمى عليه كان زمان هكذا ولكنـه الآن فاضـل ثان غير ما كان وأصبحت له زوجة وأولاد .

اما حنان فلم يهدأ روعهـا وبدأت تلعن فاضل الشخص الذى كرهته .

ـ كفى .. كفى يا حنان فانك قد ارتكبت اثما ومعصية نحو الرجل الذى رعاك وأحبك .

ان هذه سنة الله .

ولكن الله وهب لنا العقل لنفكر فيما نعمل .. والعين لتنظر وتتجنب الوقوع فى الخطأ ووهب لنا المنطق لندافع به عن انفسنا .

انه خطيبى يابى فليتكلموا مايشاءون كفى ياحنـــان انك تقتلينى بسـم بطىء .

ـ وذهب مسرعا الى غرفته وكأنه لايطيق رؤية ابنته وهى تقف فى وجهه وتلعن وتتحدث بأسلوبها التهكمى .

سافر صادق الى أهله ليمكث عندهم اسبوعين ، وكثر خروج حنان بمفردها لانها ضاقت ذرعا بالعيش مع أبيهـا فى البيت وانها اعتادت الخروج مـع خطيبها صادق . وحجتها الوحيـدة لأبيها هو أنها مخطوبة .. وأخذ والدها يمنعها عن الخروج بمفردها بأسلوب.

وفى احـــد الايام والـوقت عصرا وحنـــان فى غرفتهـا تقف أمام المرآة لتسرح شعرها وتتزين ... ووالدها فى غرفة المكتبة يطالع كتابا للمتنبى . وبعد مدة خمس دقائق سمع حركة على الدرج فرفع عينيه ونادى حنـان .. حنان .

نعم :

تعالى .

وفى تلك اللحظـة احست حنـــان بشىء غامض يرتقبها فسارت بخطوات ثقيلة . وجالت ببصرها نحو صـورة

والدتها .. فنظرت الى ساعتها وكانت عقاربها قد توقفت..وكان فى أعماقها

طرقت الباب ودخلت .

ـ حنان .. تعالى لأكلمك .. الى أين انت ذاهبة ..؟؟

ـ الى صديقتى ... هل من عارض يمنع خروجى .. فاننى قد توقعت معارضتك .

ـ ولكن أخبرك .. بألا تذهبى .

ـ لماذا ؟

ـ ان خروجك بمفردك وبدون صادق جعلنى أشك فى تصرفاتك .

ـ وماذا فيها اذا خرجت بمفردى .

ـ أقول لك مرة ثانية لا تذهبى ولا تخرجى من الآن فصاعدا الى أن يأتى خطيبك ، واننى سأخبره بذلك ان لم تكفى عن أعمالك السيئة هذه .

ـ أخروج الفتاة بمفردها عمل سيىء؟

ـ أقصد بدون خطيبك .. وعليك أن تقللى من زياراتك لصديقاتك .

ـ هه ... خطيبى ...من قال لك توافق على خطبتى ؟.. اننى لاأحب صادق .

ـماذا تقولين ؟

ـ قلت لاأحب صادق .

ـ عال ... والله عال ... وماذا تحبين اذن ؟ الفتيات الماجنات العابثات بحق أوليائهن ؟

ـ أرجوك .. اذا كنت تتعدى على صاحباتى .. فاننى لست ..

ـ لست ماذا ..؟!

ـ لست ابنتك .. لست ابنتك ..

ـ بابا ... بابا .

ولكنه ليس بمجيب لانه وقع مغشيا عليه على الارض . لانه اصبح لايطيق رؤية ابنته ... ثمرة حبه التى بقيت من زوجته ... تركتها لتعوض أبيها الحنان الذى افتقده والحب الذى ضاع ودفن .. اصبحت ابنته تتبرأ من أبوته.

ومرت الايام وسامى لايستطيع حراكا فقد أصبح مشلولا حتى لسانه وبقيت حنان وحيدة تعبس مع عذاب الضمير وقساوة الحياة .

***

وفى احد الايام جاء صادق الى دار خطيبته حنان وعندما دخل الى الصالون لم تستقبله كعادته ثم قال :

ـ حنان .. ما بك .. ما هذا الجفاء والبرود .... اين والدك ؟!

ـ لا تسأل عنى وعن والدى .. انى أكرهك ... أكرهك .

ـ ولكن..يستحيل .. انى لم أتعود سماع هذا من فمك ابدا

ـ ولكن حان الوقت الآن لتسمعه .

ـ مستحيل .. مستحيل .. هذا من وراء قلبك

ـ بل من كل قلبى .

ـ اذن قولى أين والدك ..؟!

ـ مات ...!

ـ مات ... كيف ومتى ولم لاترسلى لى برقية ؟..

ووقف صادق صامتا ... وساد صمت ثقيل .. ثم جر قدماه نحو الباب وهو خائب ... اماله التى بناها للحب تحطمت .. سعادته ... اهذه هى السعادة لعبة فى يد طفل متى يريد ان يحطمها . يحطمها ... واحس بان يدا من صخر هوت على قلبه فحطمته ... أين حنان التى ملكت مشاعره ... أين حنان التى ساعدته فى بناء قصر احلامه واماله ؟ ... اكان حلم ليل هذا ...

وأملا أبكم .. ثم أخذ يجرف فى عبراته المهراقة من أثر الخيبة التى كانت تترقبه هذا اليوم واقترب من رؤية سعادته وهى تنهار فى لحظة مدبرة ... وهكذا تحطمت صخرة الحب لاصطدامها بحبه وخابت أحلام صادق الذى لم يحب طول حياته الا فى تلك اللحظة .. وساوره الشك بأنها كانت تخدعه . ولكن حبه لها ملأ قلبه خوفا لفقدانها .. وكان قابعا بين زوايا الأيام وثنايا الساعات ينتظر ماذا سيحدث له ...

أما حنان فقد ظلت تتقلب فى موجة من الخواطر المديدة والهواجس المخيفة ، وأخذت تفكر ليل نهار بأبيها الذى جنت عليه وبحبيبها الذى قست عليه وكذبت لتعلو بكبريائها وسعادتها التى حطمتها رشبابها الذى ذوى فى غمضة عين كما يدوى الورد فى الخريف ... وفى تلك اللحظة تنازلت عن كبريائها وعنادها الذى أعماها طول شبابها وسارت فى طريقها الى الكلية ... وكان الربيع يودع أصحابه وأحبابه .. مرت من أمام دار (الاستاذ الوقور) ولكن لم تنظر اليه كعادتها وانما دخلت داره .. وراته جالسا كعادته بين أوراقه وأقلامه ... فحيته وقالت :

ـ أستاذى .. ان مجيئى اليك غريب، فعسى ألا تستاء منى أبدا .

ـ أبدا يا ابنتى فانى أفتح بيتى لمن يدخله غريب أم قريب ٠

ـ بارك الله فيك ٠

ـ اننى جئت اليك لترشدنى الى الطريق السوى وتحل مشكلتى التى اوقعتنى فى شرك من الظلام ٠

ـ اننى بجانبك يا ابنتى ٠٠٠ فاننى بجانب كل شخص يطلب معونة ٠
ـ بارك الله فيك ٠

وفى تلك اللحظة أخذ الأمل ينقضى لمستقبل حنان ٠٠٠ وأخذ الحب يتململ فى قلبها وساد وجه حنان شعاع طالما انتظرته وسرحنفى وادىحياتها٠ وأخذت تقضى اليه بما حدث لها (والأستاذ كله آذان سامعة لها) وعندما انتهت من سرد قصتها (مشكلتها) صاح الأستاذ بأعلى صوته ٠

ـ انك فتاتى ياحنان (فأخذتالدهشة ترتسم على وجه حنان) ٠

ـ انك الفتاة التى قابلتها بالخيال ٠٠ وانا السبب فى عذابها وعليه أن أنقذها من عذابها هذا٠٠ وها هى أنت أصبحت حقيقة ٠٠٠ انك رائعة يا حنان اننى قصصى وتعرفين مقدار حب الناس لمؤلفاتى فانك سوف تزيدين من شهرتى وسوف أسمى قصتى (القصة الواقعية) وأتمنى أن تضعى بنفسك حلا لهذه القصة ٠٠٠ انى عملت جاهدا بأن تكفر عن ذنبها وتسير الى خطيبها وتعتذر اليه فهل تقبلين يا حنان رأيى فى حل مشكلة هذه الفتاة ؟

اقرئى يا حنان وصفى أنت نهايتها٠٠ وعليك ألا تعطيها لأحد قبل أنهيها ٠٠

ان هذا سر يجب أن تحتفظى به بينى وبينك ٠

وأخذت حنان القصة ولكنها شكرته٠
وفى مساء اليوم الثانى انطلقت حنان بسرعة الى دار (الأستاذ الكبير) وهى تحمل معها نهاية مستقبل الفتاه الشقية ٠

وطرقت الباب وبدون أن تستأذن دخلت عليه وحيته ثم قالت :

ـ أستاذى يجب أن تعود ٠

ـ ولكن من هى ؟

ـ هى أنا ٠٠٠ يجب أن أعود وأكفر عن ذنبى تجاه والدى وأعتذر لخطيبى٠

ـ ماذا تقولين ؟

ـ فتاة قصتك٠٠٠

والله لقد نسيت أن أصداعا قد لازمنى منذ أمس نعم ياحنان عليها أن تعود وأنا بجانبك ٠٠٠ فهيا لأذهب معك لوالدك وخطيبك ولتكفرين عما بدر منك ٠

وفى تلك اللحظة شغلت هذه الفتاة العابرة فكر (الأستاذ الكبير) وأصبحت جل اهتمامه ٠٠٠

وعادت حنان الى صادق المخلص الذى ما فارق شبحها طوال مدة تغيبها عنه ورجعت ، ولكنها اعتذرت له على ما بدر منها بدون تفكير وبدون تغطية للحقائق ٠٠٠ ولكنها لم تستطع أن تعبر اليه بكلامها ٠٠٠

فظهر أنها هىالتى عبرت عما تريد أن تقوله لهذا الشخص الوفى ٠
(وهكذا انتهى الربيع وحمل معه سعادة فتاة) ٠